

٢٦٣

ولم يكن الشعر حينئذ ينشد فحسب، فكثير من الشعراء كانوا يغنون شعرهم ويعزفونه على المزاهر والصنوج والدفوف والطبول. وبذلك لم يسكب الإنشاد وحده أنغامه في كلمات الشاعر، بل أيضاً سكب الغناء فيها ألحانه، بحيث تكاملت للشعر الجاهلي عناصر نغمية كثيرة تارة من الإنشاد ورفع الصوت به، وتارة من الغناء وآلاته.

وهياً ذلك لأن يضطرم النغم في كلمات العربية منذ الأزمنة المتعاقبة طوال العصر الجاهلي، إذ تكونت تلك الكلمات وتمت من خلال الشعر ونبراته ورناته. وحقاً أخذ العرب يعرفون في أواخر العصر الجاهلي النثر، ولكنه كان نثراً شفوياً مسجوعاً، أو بعبارة أخرى كان نثراً موسيقياً، وكان يجري في قنوات ضيقة، هي قنوات الخطابة، أما الشعر فظل له - أيام الجاهلية - نهره المتدفق بهديره، وأنغامه منذ أعتق الأزمنة.

وفي كلمات العربية ظواهر نغمية كثيرة احتفظت بها منذ الجاهلية ومنذ أن كان أديها سمعياً فحسب: شعراً وخطابة، من ذلك صوغ الكلمة صياغة تدل على معناها مثل «الجران - الخفقان» فصيغتها تدل بينتها وصوتها على الاضطراب وتتابع الفعل، ومثلها «الزلزلة - الصلصلة»، فإن تكرار المقطع الأول أو الحرفين الأولين يدل على تكرار الزلزلة والصلصلة للجرس ونحوه، ومن ذلك تمييزها - كما لاحظ ابن جني في كتابه «الخصائص» - في دلالات الكلمة تبعاً لاختلاف الحرف فيها، فمثلاً «قط الشيء لما يقطعه عرضاً وقد الشيء لما يقطعه طولاً»، فقد أدرك الجاهليون بحسهم الدقيق أن الطاء أسرع قطعاً للصوت من الدال التي يتمادى عندها الصوت ويمتد قليلاً، ومثل ذلك: «مدّ الحبل» و«مت إلى فلان بقراءة» فقد جعلوا الدال التي يرتفع عندها الصوت لما فيه علاج وعمل، وجعلوا التاء التي ينخفض عندها الصوت لما ليس فيه علاج وعمل.

ومن هذه الظواهر النغمية السمعية ظاهرة الإتياع، وهي أن يتبع المتكلم الكلمة كلمة أخرى على وزنها ورويها، غير مؤد بها معنى سوى إشباع الصوت في الكلمة السابقة وتقوية جرسها مثل: «حسن بسن» فكلمة «بسن» لا تفيد أى